

صادق النيهوم

الحيوانات

رواية



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الحيوانات

رواية

الحيوانات

رواية

حِكاية الصَّقر والفيل
وَالسِّنجاب وَماجَرى
مِن وَقائِع الذئب

الطبعة الأولى

1393 و. ر - 1984 م

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب 959 مبرق 20235 «نيتليبيا»

الفصل الأول

نجلس معاً ، وكل واحد منا معه أذناه :

ذات مرة جاع الذئب . خرج يبحث عن رزقه في الصحراء . لم يجد فيها شيئاً ، ولم يقابل أحداً سوى صديقه الصقر .

« تشجع » قال الصقر « رأيتك في المنام تلبس جبة ، وصغار الدجاج بين يديك » . « دعني من أحلامك » قال الذئب « تعبت منك ، ومن كلامك المسحور . تطعمني الدجاج في منامي ، فلا آكل ولا أنام . أنا ذاهب أبحث عن رزقي في مكان آخر » . « رأيتك تبحث » قال الصقر « ورأيتك

تحكم في الغابة ، وصوتك يعلو على صوت النفير » .

« وما هي الغابة؟ » قال الذئب .

« لا أستطيع أن أدلك » قال الصقر « أخاف ان تصدق الرؤ يا . أخاف ان افتح لك بابا ، لا تعرف كيف تغلقه » .

« ياه » قال الذئب وهو يبتعد غاضبا « هذا أنت اليوم في أحسن حالاتك . لا خير فيك ، ولا ضرر من دونك ، تغالب النوم واليقظة ، وتضيع وقت الجائعين في طبخ الكلام . دعني أجد الغابة بنفسي » .

عثر الذئب على بوابة الطريق الى الغابة . عثرنا الآن على رأس الخيط .

فذات مرة جاع الأسد ـ لا بد انه جاع ـ وخرج يركض في الغابة هائما وراء أنفه ، والحيوانات تركض أمامه ، والأشجار تفسح له الــطريق .

جرى طويلا على غير طائل . سقط في مستنقع . سلخ جلده . جرح أقدامه . وشجّ رأسه بين صخرتين . كله على غير طائل . فجأة ظهر الذئب . غبار السفر ما يزال على وجهه . لمحه الأسد الجائع . هجم عليه ، رفعه في الهواء وطرحه على الأرض . الذئب رفع رأسه وشرع يضحك .

«يا مولاي» قال الذئب « يا مولاي دعني أولا أموت من الضحك . فهذا أمر مضحك فعلا » .

« هه ؟ » قال الأسد .

« أنت ؟ » قال الذئب « أنت شخصيا ملك الغابة والحيوان الأول تتضوّر جوعا هنا حتى تطمع في جثّة خادمك الذئب ؟ »

« جائع » قال الأسد .

« جائع ؟ » قال الذئب مستنكرا « الملك ابن اللبؤة جائع ؟ حسنا اذن . لماذا خلق الله أبناء التيوس والغنم وأبناء الأرانب والحمير والبط ؟ » .

« ماذا نفعل ؟ » قال الأسد بخجل .

« ماذا تفعل ؟ » قال الذئب وهو يدفعه بعيدا « أولا ترفع جثتك الملكية من فوق صدري ، وبعد ذلك تتركني أساعدك على ان تكون ملكا فعلا . اني أدعوك الى تأليف حكومة » .

تنحّى الأسد جانبا . بحث عن صخرة وجلس فوقها رافعا كلتا أذنيه . كان ينصت أحيانا عندما يريد ، ويريد دائما بعد أن ينصت .

« حكومة ؟ » قال الأسد .

« نعم » قال الذئب « لماذا تهزّ رأسك الملكي هكذا ؟ هل الحكومة عمل شائن الى هذا الحد ؟ » .

« لا أدري » قال الأسد .

« طبعا لا تدري » قال الذئب ساخرا « ما دمت تنصت الى ذلك الرأس فلن تدري أبدا . انه مجرّد صندوق يحمل فيه المرء أنيابه وأذنيه » .

« أف » قال الأسد .

« حسنا » قال الذئب وهو يختصر طريقا شاقا « لن أدخل معك في التفاصيل ، فهكذا دائما كان حال الدنيا . اللبؤة تلد الملك ، والذئب المسكين يؤلف له الحكومة في صمت . هل تسمح لي أن أجلس عند قدميك ؟ » .

« لا » قال الأسد « لا أحب الذئاب الا ميتين » .

« أحسنت » قال الذئب « فأنا أيضاً لا أحبهم الا كذلك . هل تريدني أن أؤلف لك الحكومة من وراء ستار ؟ » .

من وراء ستار بدأ البحث عن رئيس الحكومة ، وداس الذئب على عواطفه واقترح تعيين الكلب في هذا المنصب ، لكن الملك أخذ يهزّ رأسه مبديا بعض التحفظات .

«طمّاع» قال الأسد .

لم يقل الذئب شيئا .

« تابع » قال الاسد « متردّد . محبّ للظهور . تمكنت فيه عقدة الخفراء » .

لم يقل الذئب شيئا .

« لماذا تلزم الصمت ؟ » قال الأسد .

« طلبا للسلامة » قال الذئب « فلا أنت في الواقع تستغني عن الكلب ، ولا الكلب ايضا يستغني عنك . انك تحتاج اليه لكي يحرس ما تملكه ، وهو يحتاج اليك لكي تملك ما يحرسه . هذا فحوى ما سمعته من ذئب الحكماء » .

« هه ؟ » قال الأسد .

نعم ، قال الذئب ، ثم ان أحدا منا معشر الذئاب لا يخطىء سمعه المثل القائل « لا تطعن في ابن عمك الكلب ، فهو في الواقع ذئب الملك » .

« حسنا » قال الأسد وهو يربّت على كتفه « اني أكلّف هذا الذئب العاقل الذي يفتح أذنيه للأمثال بمفاتحة أي كلب في شأن تشكيل أية حكومة » .

خرج الذئب من وراء الستارة وهو
متنكّر في زي ذئب آخر وذهب يبحث
عن الكلب حتى وجده في صحبة
كلاب آخرين يتجاذبون أطراف
جريدة ممزّقة ويلطّخون وجوههم
بالحبر .

« ياه » قال الذئب مستنكرا « ماذا فعلت
بنفسك . هل هذا الوجه وجه الحكومة ؟ اذهب
الآن . اغسل أذنيك واحلق شعرك ولا تنس ان
تلبس طوقك الجلدي . ان الملك يريد أن يراك » .
« الملك ؟ » قال الكلب غير مصدّق
« الملك الملك ؟ » .

وبعد ذلك أذهلته الصدمة ، وأخذ قلبه يدقّ
وأخذ رأسه ينبح . وبعد ذلك سقط أرضاً ايضاً
مغشيا عليه .

« نعم » قال الذئب « هذه ميزة أولاد الكلب

علينا نحن معشر أولاد الذئاب . انهم يبدأون فعلا من الصفر » .

حمله فوق ظهره. غسل له شعره وأذنيه. اشترى له قرنفلة بيضاء ووضعها في عروة سترته. ظهر الكلب بمظهر آخر عندما وقف أمام الملك .

« من أنت ؟ » قال له الأسد .

« كلبك الكلب » قال الكلب .

« هه » قال الأسد متظاهرا بأنه لم يقل شيئا ، واذ ذاك انحنى الذئب فجأة وهمس في أذن الكلب :

« اركع » قال الذئب « ماذا دهاك ؟ ذيلك يابس وأذناك جامدتان مثل تمثال كلب ؟ اركع . العق الأرض أمام مولاك وانبح له من عندك كلمة أو كلمتين » .

انحنى الكلب . ذيله يرقص وعيناه تطبّلان . مشهد لا يليق حتى بكلب ،

لكن ذلك موضوع آخر . اننا ننتظر توزيع الحقائب .

« وزارة العدل للتمساح » قال الكلب من دون شرح .

« لماذا ؟ » قال الأسد .

« نحتاج الى دموعه » قال الكلب « خاصة في المحاكم الشرعية » .

« لا أطيق التمساح » قال الأسد « ادفنوه في الاذاعة » .

« مستحيل » قال الذئب متدخّلا « الاذاعة للقنفذ . خلق لها ، وخلقت له » .

« لماذا القنفذ ؟ » قال الأسد الذي لا يكف عن طرح الأسئلة .

« خبير في فن الوخز » قال الكلب « ثم انه خجول وبطيء الحركة ولا ينظر ذات اليمين ولا ينظر ذات الشمال » .

استمر توزيع الحقائب رغم حلول الليل . أظهر الأسد مرونة واضحة في قبول من هبّ ودبّ لكنه عاد وتصلّب فجأة عندما سمع عن تعيين الثعلب في وزارة الكلام .

« أريد البيغاء » قال الأسد .

« نعم ؟ » قال الكلب مستنكرا .

« البيغاء » قال الأسد « أنا معجب بفصاحته ، وكذلك زوجتي معجبة » .

سعل الذئب مرتين . كان من عادته أن يسعل عندما يريد أن يلفت نظر أحد اليه .

« يا مولاي » قال الذئب بعد أن نظر اليه الأسد « يا مولاي ماذا يستطيع البيغاء أن يفعل سوى أن يتعلّم منك الزئير ؟ ألا تريد أن تستفيد من تجارب إخوتك الملوك ؟ لقد تغيّر عصر البيغاء

وجاء الآن عصر الثعلب الذي يحسب لكل كلمة ألف حساب ، ويدفع الحساب لكل ألف كلمة » .

أشاح الملك بوجهه ، كان قد أدرك انه خسر وزارة الكلام ، لكنه كان يأمل أن يكسب الجريدة الرسمية .

« اقترح الحمار » قال الأسد « هذا اذا كنتم تبحثون عن شخص يناسبني ويناسب الجريدة الرسمية » .

« لا » قال الكلب .

« انه طويل الأذنين » قال الأسد مدافعا عن اقتراحه « ثم انه يعرف مشاكل الطبقة العاملة » .

« لا » قال الكلب .

« صوته مسموع » قال الأسد «ويحبّ السير في الطريق المستقيم » .

« لا » قال الكلب « هذا آخر ما يصلح لنا . نحتاج الى شخص مثقّف يتعاون عن كثب مع ضبعك وزير الداخلية » .

« حسنا » قال الذئب متدخّلا للمرّة الثانية « في هذه الحالة ، وفي هذه الحالة فقط ، وما دمتم تبحثون عن الثقافة ، وما دام ذلك كذلك ، فلا مفرّ من أن استجيب لنداء الضمير وأقترح عليكم اسم صديقي الجرذ . انه فعلا لا يشبع من الكتب » .

انتهى تشكيل الحكومة الليلية في آخر ساعة من الليل . انسحب الأسد الى مخدعه . وهو يتثاءب ويغالب النعاس ، وتذكّر اذ ذاك انه للأسف ـ وليس للأسف ـ قد نسي الفيل .

الفصل الثاني

طلع النهار . استيقظت الحيوانات كل حيوان منهم استيقظ ، وخرجوا جميعا يركضون هائمين وراء أنوفهم ، والاذاعة تطاردهم بنبأ تشكيل الحكومة .

عند النهر التقى الخرتيت صدفة بالضفدع .

« هل لاحظت ؟ » قال الخرتيت « لقد شكّلوا الحكومة من دونك » .

« لاحظت » قال الضفدع « نحن الضفادع ، أصحاب العيون المدوّرة ، نلاحظ ما يدور حولنا . وقد لاحظنا أيضاً انهم شكّلوها من دونك » .

« ياه » قال الخرتيت « هذا أمر ثانوي حقا ، فنحن معشر الخراتيت لا نهتزّ بسهولة . ماذا تنوي أن تفعل ؟ » .

« أفكّر في الهجرة » قال الضفدع « ربما الى المستنقع المجاور ، ماذا تنوي أن تفعل ؟ » .

« تعال » قال الخرتيت فجأة وهو يجرّه من يده « أغطس معي تحت الماء لكي نتحدّث في أمان . ثمّة ذبابة وراءك تتظاهر بأنها تقرأ جريدة » .

تحت الشجرة التقى الثعبان بالعقرب وتظاهر أولا بأنه لا يراه .

« ياه » قال العقرب ساخرا « لماذا تشمخ بأنفك في السماء ؟ الحمد لله انهم لم يدخلوك الحكومة » .

« أهلا بالعقرب » قال الثعبان معتذرا « لقد سمعت انهم شكّلوا الحكومة من دونك أيضاً » .

« نعم » قال العقرب « لدغونا في الظلام »

« الحيوانات » قال الثعبان « هؤلاء البهائم . انهم

لن يسمحوا لنا حتى بدخول الانتخابات » .

« اش » قال العقرب وهو يضع اصبعه على فمه « تعال نتحدّث في جحر تحت الأرض . ثمة ذبابة وراءك تحمل آلة تسجيل » .

فوق الشجرة التقت البومة بالخفّاش
لكنها لم تندهش للقائه .

« تعرفين ؟ » سألها الخفاش « لقد شكّلوا الحكومة من دونك » .

« أعرف » قالت البومة وهي تمسح نظاراتها « وأعرف أيضاً طبقا للنظرية انهم قد شكّلوها من دونك أيضاً » .

« نعم » قال الخفاش « قلبوا بنا الكراسي »

« مؤقّتاً » قالت البومة « مؤقّتا فقط أيها الخفاش فالواقع ان حتمية الصراع بين الطبقة الطائرة والطبقة المتسلّقة لا بد أن تقود في النهاية الى حتمية أخرى . ثم اننا لا نستطيع أن ننسى الفيل » .

« اش » قال الخفّاش « نؤجّل حديثنا الى

الليل . ثمّة ذبابة وراءك تتظاهر بأنها ليست ذبابة » .

في المقهى جلس الفيل وسط حلقة من اصدقائه . ذبابة وراءه واخرى تكتب في دفتر بين رجليه .

« أيها القطيع الصغير » قال الفيل « احذروا أن تضلّوا ، فالحق أقول لكم : ان يدخل الجمل في عين الابرة أسهل عليه من ان يدخل هذه الحكومة . انها حكومة أنياب »

« نعم » قال الجمل « حكومة لصوص . كل واحد منهم لص » .

« نعم » قال الخنزير « نعـ . . نعـ . . نعم . هذه حكومة لصوص » .

« ياه » قال الحمار متضايقا .

« طبعا » قال التيس « طبعا حكومة لصوص . انهم جميعا من جنس القطط »

« اخـرس. اخرس » قال القط الذي كان

يجلس صامتا في الشمس ويمضغ القات « لا تذكر القطط على لسانك . اننا أبرياء من هذه الحكومة وليس لنا أية علاقة بها » .

« بلى » قال الجمل « الملك ابن عمك وكذلك النمر وزير التخطيط » .

« من ؟ » قال القط مستنكرا .

« الملك » قال الخنزير « الملـ . . الملـ . . » .

قام الحمار متضايقا وأدار جهاز التلفزيون . كانوا يبثّون بيان الحكومة على جميع الموجات ، وكان الكلب قد وضع قرنفلة جديدة في عروة سترته . وظهر مبتسما على الشاشة .

« هذا هو » قال الجمل بصوت عال « اني أعرفه منذ أن كان كلبا شريفا » .

« ايه » قال الحصان « وأنا أيضاً أعرفه » .

« وأنا » قال الكبش « أليس هذا صبى اللبّان ؟ » .

« اش » قال لهم الارنب « اسكتـوا قليلا . لقد بدأ ينبح » .

وبصوت مخنوق بعض الشيء وغير نقي بعض الشيء بدأ رئيس الوزراء يتلو بيان الحكومة . ونحن سنعطيه أذنا واحدة لأنه أكثر من ذلك لا يستحق .

« أيها الحيوانات الأعزاء » قال الكلب « يا أهل هذه الغابة . يطيب لي في هذا اليوم الأغرّ أن أزفّ اليكم بشرى طالما داعبت. . »

« ما معنى أغرّ » قال الحصان .

« اش » قال الأرنب .

« لها معنيان » قال الجمل وهو ينظر حوله « واحد نسيته والآخر نساني » .

ضحك الجمل . ضحكت معه بعض الحيوانات . أشاح الفيل بوجهه الى

الجهة الأخرى .

« . . وحرصا من حكومتي » قال الكلب « حرصا منها على استتباب الأمن وضمان سيادة قانون الغابة فقد تقرّر ما يلي : أولا بناء شرطة لحراسة الأمن . ثانيا بناء شرطة لحراسة الشرطة . ثالثا . . . »

« ما معنى أمن ؟» قال العصفور للجرادة التي كانت تكحّل عينيها .

« لا أعرف » قالت الجرادة غاضبة وهي تغيّر مقعدها « ولا أريدك أن تتحدّث معي . اني أكره العصافير » .

« يـوه » قـال العصفـور غـاضبـاً « تجعلين من الحبّة قبّة . ماذا فعلنا لك معشر العصافير ؟» .

« فعلتم » قال له التيس وهو يغمز بعينه « ومعظمكم يفعل ثم يطير هاربا دون أن يدفع لها شيئا . أليس كذلك يا أختنا الجرادة » .

« كذلك » قالت الجرادة « وأنتم أيضاً معشر التيوس » .

ضحك التيس . ضحكت معه بعض الحيوانات . أشاح الفيل بوجهه الى الجهة الأخرى .

« . . وحرصا من حكومتي » قال الكلب « حرصا منها على نشر الثقافة وتأكيد روح الغابة فقد تقرّر ما يلي : أولا اصدار جريدة ناطقة . ثانيا اصدار جريدة لا تنطق . ثالثا اصدار جريدة لغير الناطقين » .

« ما معنى ثقافة » قال الحمار للثور .
« لا أعرف » قال الثور « اني لا أعرف سوى امرأتي البقرة . مع غيرها يغلبني الضحك » .

ضحك الحمار . ضحكت معه بعض الحيوانات . أشاح الفيل بوجهه الى الجهة الأخرى .

« . . وحرصا من حكومتي » قال الكلب « حرصا منها على استتباب الاخلاق وصيانة تقاليد الغابة فقد تقرّر ما يلي :

« ما معنى غابة ؟ » قالت البومة التي ظلّت صامتة طوال الوقت .

« يوه » قال التيس « هذه أنت يا أختنا البومة . كيف حال الدنيا في الظلام ؟ » .

ضحك التيس . ضحكت معه بعض الحيوانات . أشاح الفيل بوجهه الى الجهة الأخرى . وفي هذه المرة كان عليه أن يتكلّم .

« أيها القطيع الصغير » قال الفيل فجأة « كثرة الضحك مثل كثرة الصفير موجع للّثة واللسان . احذروا ان تضلوا ، فما أرى لكم وراء حجب المستقبل على هذا الطريق سوى العذاب » .

« اف » قال التيس .

« لا تنصتوا اليه » قال الخرتيت « انه مجرّد درويش » .

« أيها القطيع الصغير » قال الفيل « انصتوا ثم انصتوا . اني أحدق في حجب الغيب وأراكم . هذا يؤكل بالملح ، وهذا يؤكل من دونه ، وهذا يسلخ حيا ، وهذا يقلى في الزيت . الويل لمن لا ينفذ بجلده » .

« احترسوا » قال العقرب « لا تتركوا هذا الفيل يبثّ بينكم سمومه . اتصلوا فورا بالمباحث العامة » .

« اتصلنا » قال الخفّاش .

« ايها القطيع الصغير » قال الفيل « انصتوا ثم انصتوا . اني أحدّق في حجب الغيب وأراكم . هذا يركب على ظهوركم . وهذا تجرون له المحراث . وهذا يشرب حليب أطفالكم . وهذا

يقدم بناتكم للضيوف . الويل لمن لا ينفذ بجلده » .

« لا تنصتوا اليه » قال الضفدع « دعوه ينقّ في الفضاء » .

« تلك المباحث » قال العقرب غاضبا « لقد تعطّلت سيارتهم كالعادة » .

« أيها القطيع الصغير » قال الفيل « انصتوا ثم انصتوا . . . » .

لا نستطيع أن ننصت ، اننا للأسف ـ وليس للأسف ـ لا بد أن نهرب قبل أن تتحرّك سيارة المباحث .



الفصل الثالث

.. وحسنا اننا هربنا فقد تحرّكت سيارة المباحث وانتهى عصر الحق وبدأ عصر التحقيق ، وقبضوا على الجمل والحصان ، وقبضوا على الجرادة والفيل وفرس النهر والأرنب والحمار والعندليب .

لم يوفّروا أحداً . حتى القط قبضوا عليه رغم قرابته للملك . اننا نسمعهم يصرخون ويتكلّمون في غرف التحقيق لكننا من باب الحفاظ على السرية ، سننظر اليهم بنصف عين .

في الغرفة الضيقة كانوا يضربون الجمل بعصاتين من جريد النخل . وكان الجمل قد صبر على الضرب حتى نفذ صبره ثم بدأ يجرّب وسائل أجدى .

« كفى » قال الجمل للمحقّق « كفى يا حضرة الصرصور . قل لهم أن يكفّـوا عن ضربي » .

« ياه » قال الصرصور « هذا أنت تنهار في غمضة عين وتخيّب ظن المعجبين بصبر الجمل . ألا تريد أن تكون بطلا ؟ » .

« لا أريد » قال الجمل .

« ياه » قال الصرصور « هكذا بسرعة ؟ ومن دون اصرار على الشهادة ؟ »

« من دون » قال الجمل .

« ياه » قال الصرصور « دعني أخبط كفا بكفّ . ومستعدّ أيضاً أن تتكلم ؟ »

« مستعدّ » قال الجمل وهو ينظر حوله خجلا

« ليس من كل قلبي ، ولكن بيني وبينك مستعدّ » .

نِنسحب . نتظاهر بأننا لم نكن .
نذهب باحثين عن العزاء في الغرفة
المجاورة . هنا كانوا يضربون الثور
بعصاتين من فروع الزيتون ، وكان
الثور قد غلبه النعاس رغم حـدّة
الضرب .

« انه لا يتألم » قالت الصراصير الضاربة من فرقة العصي « مهما نضربه لا يتألم . جربنا السياط . جربنا الكهرباء . أحرقنا أذنيه . كله على غير طائل » .

« كلام فارغ » قال الصرصور خبير التعذيب « الآن أريكم كيف يتألم . اذهبوا لاحضار امرأته البقرة . دعونا نعتدي على شرفها أمامه . انه سيركع ضارعا على ركبتيه » .

« نعم » قال الثور باكيا على حين غرة « اعترف بأني سأركع » .

« أسرعوا » قال الصرصور خبير التعذيب « اذهبـوا قبل أن يغيّر رأيه . دعـونا ننعم بـالبقرة ، فقد شبعنا من هذه الأرانب » .

« لا » قال الثور « دعوها وشأنها . لقد غيّرت رأيي وسوف أتكلّم وقروني في الأرض » .

ننسحب . نتظاهر بأننا لا نرى . نذهب باحثين عن العزاء في الغرفة المجاورة . هنا كانوا يضربون الخنزير بعصا المقشة ، وكان الخنزير لا يعرف لماذا يضربونه .

« اذا فهمتك جيدا » قال له صرصور برتبة مشير « فأنت لا ترفض أن تتكلّم لكنك فقط لا تستطيع » .

« نعم » قال الخنزير « يا سيدي المش . . المش . . المش . . » .

« آه » قال الصرصور « هذه اذن مسألة أخرى . دعني أساعدك على طريقتي . أنا أتكلّم وأنت تهزّ رأسك الغبي . هل كان الفيل حاضرا معكم في تلك الليلة ؟ » .

ننسحب . نتظاهر بأننا لا نتكلّم . نذهب باحثين عن العزاء في الغرفة المجاورة . هنا كانوا يضربون القط بعود من النعناع بعد ان اكتشفوا قرابته للملك ، وكان القط قد اكتشف ذلك قبلهم .

« سوف أخرب بيوتكم » قال القط للمحقّقين: « وسوف أشكوكم لعمي الملك فينزع رتبكم ، ثم أشكوكم لعمي النمر وزير التخطيط فيهدم بيوتكم ، ثم أشكوكم لعمي الفهد وزير الدفاع فيرميكم في السجن » « يا ويلنا » قال رئيس الصراصير : « يا ويلنا » .

« ثم أخرجكم من السجن » قال القط

« وأشكوكم لصديقي وزير الأملاك فيصادر أملاككم ، ثم أشكوكم لصديقي وزير العدل فيخطف أطفالكم ، ثم أشكوكم لصديقي وزير الزراعة فيحرقكم مع التبن » .

« يا ويلنا » قال رئيس الصراصير « يا ويلنا » . كيف تريدنا أن نعتذر لك يا صاحب الحسب والنسب ؟ » .

« كيف ؟ » قال القط ساخرا « لا أدري كيف ؟ لكنكم في العادة معشر الصراصير تبدأون كل شيء باحضار القهوة » .

ننسحب . نتظاهر باننا لا نسمع . نذهب باحثين عن العزاء في الغرفة المجاورة . هنا كانوا يربتّون على كتف التيس ، وكان التيس يدعوهم بنفسه الى ضربه .

« اضربوني من فضلكم » قال التيس « روحي فداء الملك . اقتلوني . حطّموا ضلوعي التي تخفق

بحبّه . اذبحوا له ولدي الجدي » .

« كفى » قالت الصراصير الضاربة « لقد كسرت قلوبنا » .

« سلامة قلوبكم » قال التيس « اذبحوا الجدي واخته وخذوا لساني على مائدة الملك لكي أقول له هنيئا » .

ننسحب . نتظاهر بأننا لا نحسّ. نذهب باحثين عن العزاء في الغرفة المجاورة . هنا كانوا يضربون الفيل بجميع أنواع العصي من جميع أنواع الشجر ، وكان الفيل يعرف بأنهم يضربونه .

« لا نأكل أحدا ولا نحب أحدا يأكلنا » قال الفيل مصليا « لا نأكل أحدا ولا نريد أحدا يأكلنا . لا نأكل أحدا ولا نترك أحدا يأكلنا . لا نأكل أحدا ولا ننتظر أحدا يأكلنا » .

« تعبنا » قالت الصراصير الضاربة « هذه المرة

تعبنا فعلا . اننا نعتقد انه يمارس نوعا من السحر » .

« كلام فارغ » قال الصرصور خبير التعذيب « كل واحد منهم فيه نقطة ضعف . جـرّبوا النار . جرّبوا الكهرباء . ادفنوه في البئر فقد سمعت انهم يكرهون الظلام » .

« جرّبنا» قالت الصراصير الضاربة « كل شيء جرّبناه . اننا نعتقد انه ساحر » .

« كلام فارغ » قال الصرصور خبير التعذيب « كل واحد منهم فيه نقطة ضعف . اذهبوا لاحضار امرأته الفيلة لكي نعتدي على شرفها أمامه » .

« ليس متزوّجا » قالت الصراصير « وليس لديه بيت ننسفه ، وليس لديه دكان نحرقه ، وليس لديه طفل نخطفه » .

« كلام فارغ » قال الصرصور خبير التعذيب « كل واحد منهم فيه نقطة ضعف . دعوني أولا أتكلّم معه » .

« لا يتكلّم » قالت الصراصير « ولا يجيب عن سؤال ولا يسأل عن اجابة » .

« كلام فارغ » قال الصرصور خبير التعذيب « كل واحد منهم فيه نقطة ضعف . دعونا نستشير السيد رئيس الوزراء » .

اتصلوا بالكلب . كان الوقت متأخرا جدا ، لكنهم اتصلوا به ووجدوه ساهرا في نادي الشطرنج ، يكشّ الملك بالفيل .

« سيّدي الرئيس ؟ » قـال الصرصـور « نواجـه مشكلة مع الفيل » .

« الفيـل ؟ » قال الكلب مـدهـوشـا « الفيـل ؟ دعني أتذكّر . نعم الفيل . الآن تذكّـرته . هـل هذا مشكلة من أي نــوع ؟ أعـرضــوا عليـه وظيفــة في السلك الديبلوماسي » .

« يرفض » قال الصرصور .

« يـاه » قـال الكلب « لا تضيّعوا وقتي عبثـا .

اعـرضوا عليـه أن يختار دوره بنفسـه . يستـطيـع أن يلعب بمثـابـة وزيـر أو بمثـابـة بـطرك أو قلعـة أو حصان » .

« يـرفض » قال الصـرصور « انـه يلعب بمثابـة فيـل . وهذا وزنـه أكثر من عشـرة أطنان . وينـوي أن يأخذ بخناق الملك » .

ننسحب . أكـثر من ذلـك لا يهمنـا أن نسمع . لقد شدّ الفيل أزرنـا ، ونحن ندعوا الله أن يشدّ من أزر الفيل .

الفصل الرابع

الملك يزأر غاضبا على مائدة الافطار . رئيس الوزراء واقف يرتجف أمامه . جميع أنواع الصراصير من جميع انواع الرتب واقفة ترتجف أيضاً . الذئب في ملابس النوم يقرأ الجريدة من دون نظارته . ماذا حدث ؟ .

أمر جديد تحت الشمس . لقد طار الفيل هاربا ، أو لعلّه قد هرب من دون أن يطير .

« لا أصدّق » قال الأسد « لا أحد منكم يردّد أمامي هذه الأكذوبة . قولوا انكم كنتم نائمين . قولوا انكم كنتم تلعبون الورق » .

« هؤلاء الصراصير » قال النمر وزير التخطيط « هؤلاء الصراصير يا صاحب الجلالة يقبضون الرشوة . اسألهم كم دفع لهم الفيل » .

« لعلّه طار فعلا » قال الفهد وزير الدفاع « لعلّه لم يدفع أية رشوة » .

« اسمعوا » قال الجرذ فجأة وهو يقرأ ما كتبه في الجريدة من فوق كتف الذئب : « اسمعوا من فضلكم . بعد فحص الزنزانة اتضح للخبراء بما لا يدع مجالا للشك ان هروب الفيل قد تمّ بمساعدة قوى خارقة غير حيوانية . . . » .

« ياه » قال الذئب وهو يحمل جريدته ويغيّر مقعده بعيدا « الا يستطيع المرء أن يقرأ جريدته وحده في سلام حتى اذا كان ذئبا ؟ » .

يعترينا الفضول ، نشتري لأنفسنا جريدة . نقلّب صفحاتها المصنوعة من اوراق البرسيم . نرى وجه الفيل . نرى وجوه ستة من زعماء

الأحـزاب . نحدّق فيهـا عـابسـين .
نعطي الجريدة لبرميل القمامة ، لعله
يريد أن يقرأها بنفسه .

فهـذا الضفدع زعيم حـزب (الذين
يتنفسـون تحت الماء) يستنكـر طيران
الفيل ويتهمه بالشعوذة وأكل العشب
والحشيش ويعرّض بالبومة من طـرف
خفي .
وهـذه البومـة زعيمة حـزب (الذين
يبصـرون في الليـل والنهـار) تكتب
حـديثا في الصفحـة الثالثـة تنعت فيه
الفيل بالرجعية وتشويه مسيرة الغابـة
وتصفـه مـرة بـالأفيـون ومـرتـين
بالثعبان .

وهـذا الثعبـان زعيم حـزب (الـذين
يزحفون صامتين على الشوك) يعقـد
مؤتمرا صحفيا بمقره في جحر الحـزب

يعلن فيه عن أسفه لهـروب الفيل من مخالب العدالـة . نتأسّف عـلى موقف ثعـابين السيـاسـة . نستـطلع مـوقف حيـوانات الشـارع . نجد معـظمهـا واقفا في البار .

« ويسكي » قال الجمل للبـطة البنيّة الجـالسة وراء البـار « وجـرّبي أن تبعـدي أصبعـك عن أنفك » .

« هالو » قال السنجاب الذي كان يسكر وحده منذ الصباح « هل هذا أنت يا أخي الجمل ؟ وأنـا أبحث عنك طوال النهار ، تعال هنـا . لديّ لـك رسالة من الفيل » .

« من ؟ » قال الجمل والتفت حوله مذعورا . وفيما كانت رقبته الطويلة تدور على مهل رأى تلك الذبابتين . واحدة تراقبه . والأخرى تراقبها .

« لا أعرفه » قال الجمل « لم أره في حياتي » .

« هالو » قـال السنجاب « رسـالة من أخيـك الفيل » .

« لا أعرفه » قال الجمل .

« أحسنت » قـال التيس متدخّـلا من أقصى البار « منذ الصبـاح وأنا أؤكـد له أن أحـدا منا لا يعرف هذا المدعو بالفيل » .

« لا نعرفه » قال الحمار « لا يعرفنا » .

« هـالو » قـال السنجاب وهـو يغالب السكـر « ماذا دهاكم أيها الحيوانات ؟ هل ثمّـة أحد منكم لا يعرف الفيل ؟ » .

« لا نعرفه » قال الخنزير « لا نعـ . . لا نعـ . . لا نعـ . . » .

« هالو » قال السنجاب غاضبا « هل هذه أذني التي تسمع ؟ كيف لا تعرفون الفيل صديقنا القديم الـذي أطفأ لكم النـار بخرطـومه عنـدما شبّت في الغابة وحملكم على ظهره لكي تعبروا النهر وعلّمكم ان تقشـروا التـين الشـوكي وتـأكلوا الأشيـاء من داخلها » .

« لا نعرفه » قال الحمار .

« لا نعرفه » قال الثور « ولا نعرف أحدا غيره » .

« سوى الملك » قال التيس مستدركا « فالواقع اننا أيضاً نعرف صاحب الجلالة الملك . أمدّ الله في عمره وجعله ذخرا لهذه الحيوانات » .

نتأسّف على موقف تيس الشارع . نستطلع موقف أرنب البيت . نجده واقفا في المطبخ .

« العشاء » قال الأرنب .

« جاهز » قالت الأرنبة « احضر صحنك وقل للعيال أن يحضروا صحونهم » .

« رقم 9 » قال الأرنب « محروم من العشاء . اني أريد ان أعاقبه على تعليق صورة الفيل في غرفته ، وكذلك أخوه رقم 11 » .

« حرام » قالت الأرنبة « دعهم يأكلون معنا هذه المرة . لقد أعددت لهم جزرا مقليا وجزرا

مطبوخا وجزرا آخر بين بين » .

« لا نريد أن نأكل » قـال الأرنب رقم 9 « ولا نحب والدنا ، اننا سنترك له هذا البيت » .

« نعم » قال الأرنب رقم 11 « سنتركه ونعيش في الجبال » .

« نعيش مـع الفيل » قـال الأرنب رقم 9 « لا نأكل أحدا ولا نريد أحدا يأكلنا » .

« نعم » قال الأرنب رقـم 11 « نعيش معه » .

« اش » قـال الأرنب « الآن سـأحضـر لكم السوط . لا أريد ذكر الفيل في هذا البيت » .

« يـاه » قالت الارنبـة ضاحكـة « دع الاطفال يأتون الى الفيل . انهم يلعبون ليس إلا » .

« اخـرسي » قال الأرنب وهـو يحضر السـوط ويضربهم جميعا ويحرمهم من العشاء جميعا « لا أحد يلعب بالفيل . لا أحد يذكر اسمه في بيتي . هـل تريدون ان تقطعوا رزقي ؟ هل تريدون أن أذهب

ولا أرجع حتى يرجع الحمار من بطن الذئب ؟ » . .

نترك أرنب البيت يتخبّط في جهله .
نذهب الى دب المدرسة ، فنجده لا يتخبّط .

« . . وسمعنا من شيوخنا » قال الدب لتلاميذه في حصة التاريخ « ومن بعض الثقاة وأصحاب السر الأعظم ان الفيلة تضع بيضتها وتعلّقها على رأس شجرة وتزغرد فلا يلبث الشيطان أن يأتي على صوت الزغاريد . . » .

« يا لطيف » قالت القملة .

« يا لطيف » قال الحصان .

« . . يأتي اليها راكبا فوق سحابة » قال الدب « وهو يجرّ ذلك الرمح الناري ويحمل على قرونه تلك الشموع ، والأرض تهتزّ تحت قدميه والجبال ترتعد خوفا كالأطفال » .

« يا لطيف » قالت القملة .

« يا لطيف » قال الجربوع .

« . . فاذا وصل الى الشجرة » قال الدب « يدور حولها سبع مرات وهو يدقّ على طبلته ويرقص ويقول (طائر على الشجرة خير من عشرة في اليد) . أيها المبارك الذي علّقته أمه بين السماء والأرض . لا تصعد بل اهبط. هذا أنا أخلقك على هيئتي وأعطيك عكازا وسر مملكة من دون أسرار . قدّوس . قدّوس . أوصيك بقتل من يتبعك . أوصيك بقتل من يتبع غيرك . أدعوك للصمت في وقت الكلام . أدعوك للكلام في وقت الصمت . أوصيك بالشك في عين اليقين ، أوصيك باليقين في عين الشك » .

« يا لطيف » قالت القملة .

« يا لطيف » قال البرغوث .

« نعم . نعم » قال الدب بعد أن انقطع حبل أفكاره « هكذا يرقص الشيطان وهكذا تكبر البيضة حتى تنحني الشجرة تحت ثقلها ويهبط الفيل على

الأرض . من دون الشيطان لا تكبر البيضة الى هذا الحد بل تفقس فوق الشجرة ويخرج منها طائر غريب اسمه الصقر يقضي عمره متعبّدا في الصحراء . . » .

نتأسّف على دب المدرسة . نذهب آسفين الى قنفذ الاذاعة ، نجده يقرأ تعليقا مؤسفا .

« من منا لا يعرف الفيل » قال القنفذ الذي لم ير فيلا كاملا في حياته « من منا لا يعرف ذلك المسخ الجهنمي الذي يحمل ذيله في وسط رأسه ، ويمشي على أعمدة . ذلك الذي يرى الدنيا من عين ابرة ، ويضحك دائما من دون سبب . . . » .

نطفيء الجهاز . هذا أقصى ما نطيقه من نشرة الأشعار .
ندير ظهورنا لدنيا مشغولة بأحداث الساعة الى فيل مشغول بالساعة نفسها .

« لماذا ؟ » قالت الفراشة للفيل عندما سألها عن الساعة « لماذا تسأل ؟ هل تعبت من الطيران معي ؟ » .

« نعم » قال الفيل « ثم اني انتظر صديقي السنجاب الذي بعثته لكي يدعو اصدقائي الى العشاء » .

« العشاء ؟ » قالت الفراشة وهي ترفع حاجبيها « هل قلت العشاء ؟ » .

« نعم » قال الفيل . « لماذا ترفعين حاجبيك ؟ » .

« خائفة » قالت الفراشة « وهل اصدقاؤك عددهم اثنا عشر ؟ » .

« نعم » قال الفيل « لماذا أنت خائفة ؟ » .

« كلامك يدعو الى الخوف » قالت الفراشة : « وهل ستبارك لهم العشب وتغسله وتعطيهم ؟ » .

« نعم » قال الفيل « كيف عرفت ؟ » .

« ذلك حدث مرة من قبل » قالت الفراشة « وهل ستأخذ الكأس وتشكر وتعطيهم ؟ » .

« نعم » قال الفيل « تفضّلي أنت معنا » .
« لا » قــالت الفــراشــة وهي تقفـز هــاربـة « عشائي على النار ثم ان لدي مصبـاحا لا بـدّ أن أرقص حوله » .

في تلك الليلة المشؤومـة قـال الفيــل لضيـوفه وهـو يقدّم لهم العشب عـلى مائدة العشاء : لا نأكل أحدا ولا نترك أحدا يأكلنا . الحق أقول لكم . هذا أنا حطّاب فقير لا أكسب في يومي ما يســدّ رمق فأر ، وهـذا أنـا في حجم سفيـنــة . احــذروا ان تضـلّوا لأن كثيرين سيأتون بعدي قائلين كلوا هذا الأرنب . كلوا هـذا الخـروف . فـلا تطيعوهم بل تنهروهم وتسخروا منهم وتردّوا عليهم قائلين : لا نأكل أحدا ولا نترك أحدا يأكلنا .

وكــان الفيل يتكلّم هكـذا عندمـا تم القبض عليه .

الفصل الخامس

في المقهى أصر الجمل على اطفاء التلفزيون لكي لا يشاهد محاكمة الفيل ، وأصرّ الضفدع على عدم اطفائه وتماسكا بالأرجل وعض كلاهما أذن الآخر ثم اتفقا سويا على الفرجة من دوت صوت . واضاءت الشاشة . وظهر الفيل في قفص الاتهام وظهر الخروف في قفص الشهود وظهر الديك في قفص النيابة وكلهم يتحدّثون من دون صوت ، وكلهم يفتحون أفواههم ويغلقونها .

« حسنا » قال الخرتيت الذي دخل فجأة الى

المقهى « مـاذا دهاكم جميعـا ؟ تتفرّجـون من دون صوت ؟ دعونا نسمع ما يقال » .

ومن دون ان يعبأ باعتراض أحد رفع الخـرتيت صوت الجهـاز وكان وكيـل النيابة قد فرغ تقريبا من مرافعته .

« قـاق . . قاق » قـال الـديـك « هـذا الفيـل المـزري يقتلني بالضحـك . هذا المشعـوذ صاحب الجلباب الأسود الـذي يزعم انـه ملك الحيوانـات الشرعي » .

تقدم الجمل وأطفأ الجهاز .

« لا أريد أن أسمع » قال الجمل مغموما .

« نحن نريد » قال الخرتيت « ما الذي يحـرق قلبك على الفيل ؟ هل صدّقت انه ملك الحيوانات فعلا ؟ » .

« لا أدري » قـال الجمـل « لعله ليس ملك الحيوانات » .

« طبعا » قال الخرتيت « انه مجرّد فيل مثل هذه

الأفيال ، لكنكم معشر الحيوانات المجترّة تحبّون أن تحلموا بالمنقذ وتأكلوا عشاءكم مرتين » .

ومن دون أن يعبأ باعتراض الجمل رفع الخرتيت صوت الجهاز . هذه المرة كان الخروف يتكلم في قفص الشهود وكان يشير الى المتهم بكلا قرنيه .

« ما . . ما » قال الخروف « هذا الفيل أخذني ذات مرة من يدي وقادني الى شجرة وقال : يضحكني معشر الخرفان ان الواحد منكم يعيش مثل هذه الشجرة . يطرح ثمارا فتؤكل ، ويطرح أوراقا فتؤكل ، ثم يقطعونه ويطرحونه في النار . . » .

« ذم وقدح » قال الديك « وماذا تخبرنا أيضاً ؟ » .

« ما . . ما » قال الخروف « هذا الفيل أخذني ذات مرة من يدي وقادني الى النهر وقال : يزعجني

معشر الخرفان انكم تعيشون مثل هذا النهر . تصبّ فيه السماء وهـو يصبّ في البحر . منبعـه أعلى من مجراه . ومجراه أعلى من مصبّه . أوله يجهل آخره ، وآخره يجهل أوله . موجاته تتـلاحق لكنها أبـدا لا تلتقي » .

« قـدح وذم » قـال الـديـك « ومـاذا تخبـرنـا أيضاً ؟ » .

« ما . . ما » قال الخروف « هذا الفيل أخـذني ذات مرة من يدي وقادني الى الجبل وقال : يعذبني معشـر الخرفـان انكم مثل هـذا الجبل لا يلد لكن ينقسم . كـل حجارة فيـه تشبه حجـارة اخـرى . واحـدة في يدك ، وواحـدة في يـد عـدوك . هـذه تضرب بها ، وهذه تضربك » .

تقدم الجمل وأطفأ الجهاز .

« لا أريد أن أسمع » قال الجمل .

« ياه » قال الخرتيت « ماذا دهـاه هذا الجمـل السمج ؟ قولوا له أن يدير الجهاز » .

« لا » قـال الحصان « لا أحـد منـا يـريـد أن يسمع » .
« لا أحد » قال الخنزير « لا أحـ. . لا أحـ. . لا أحـ. . » .

ومن دون أن يعبـأ باعتـراضهم جميعا تقـدم الخرتيت ورفـع صوت الجهـاز لكنه فوجيء هذه المرة بصوت الفيل .

« وأقول لكم يا أحبائي » قال الفيل « لا تخافوا ممن يقتـل الجسد وليس لـه بعد أن يفعـل أكـثر . أليس خمسـة عصافـير تبـاع بفلسـين ؟ ومـع ذلـك فواحد منها لا ينسى أمام الله . فـلا تخافـوا فانكم أفضل من عصافير كثيرة . . » .
« مـا هذا ؟ » قـال الـديـك « من منكم فهم شيئا ؟ » .

« من ليس معي » قال الفيل « فهو عليّ ، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق . ليس أحد يوقد سـراجا ويضعه خفية ولا تحت المكيـال ، لكن على المنـارة

لينظر الداخلون نوره . ها أنا مرسلكم مثل خراف بين ذئاب . لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا حذاء ولا تسلّموا في الطريق على أحد . . »

« حسنا » قال الديك « انه يحرّض على الثورة . . أليس هذا ما يفعله ؟ » .

« لا تخف أيها القطيع الصغير » قال الفيل « وكونوا مثل رجال ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس حتى اذا جاء وقرع يفتحون له للوقت . اني جئت لألقي نارا على الأرض وما أريد الا اضرامها . أتظنون اني جئت لألقي على الأرض سلاما ؟ أقول لكم كلا بل شقاقا . . » .

« قاق. قاق » قال الديك « انه فعلا يحرض على الثورة . هذا مضحك يا صديقي الفيل . هل نسيت الآن اننا في الغابة واننا مجرّد حيوانات بعضها قطط وبعضها مواش » .

تقدم الجمل وأطفأ الجهاز .

« لا أريد أن أسمع » قال الجمل « لا

أحتمل » .

« حسنا » قال الخرتيت وهو يقفز غاضبا « معشر المواشي تخرج من هنا ، وكذلك معشر العصافير والارانب والبط وكل من له علاقة بالفيل . لا تزعجوني أكثر من ذلك . لقد تعبت من سماجتكم » .

« لن نخرج » قال الجمل .

« بلى » قال الضفدع « تخرجون جميعا . المواشي في جانب والقطط في جانب آخر . لقد تعبنا منكم » .

« لن نخرج » قال البرغوث « اننا باقون على صدوركم » .

« ياه » قال الخرتيت وهو يهاجم بقرنه غاضبا ويضربهم جميعا ويطردهم جميعا « ما أثقل هذا الجمل . ما أثقل هذا البرغوث . أخرجوا من هنا أيها الحشرات والدواب . كيف تبقون على صدورنا وأنتم عاجزون عن البقاء فوق صدر الأرض .

انحشروا جميعا ودبوا الى جهنم . دعونا نتفرّج في سلام » .

في الريح ، تحت المطر ، من دون طعم السلام تجمّعت الحيوانات المقرورة وأخذت تبكي من البرد وتواسي بعضها البعض في انتظار طلوع الشمس .
الحصان حمل صغار العنزة ، والعنزة أعطت حليبا للسنجاب ، والسنجاب غطى بذيله الجربوع ، والجربوع أعطى قمحة للثور ، والثور غطى تحته الأرنب ، والأرنب تحته العصفور ، والعصفور أعطى قمحة للجمل ، لكن الشمس لم تطلع ولم تطلع .

« حسنا » قال السنجاب بعد أن تعب من الانتظار « لن تطلع الشمس . لقد تذكّرت الآن

انها لن تطلع على أرض خائفة الى هذا الحد » .

« احترس » قال الجمل هامسا « ثمّة ذبابة وراءك » .

« وأخرى هنا » قال الحصان هامسا « ثمّة ذبابة أخرى هنا » .

« هالو » قال السنجاب « هل تخافون من ذبابتين ؟ أيها الحيوانات الحيوانات الا تعرفون شيئا سوى الخوف » .

« لا » قال الحمار هامسا : « أنا شخصيا لا أعرف » .

« وأنا أيضا » قال الثور هامسا : « أعرف الخوف وامرأتي » .

« هالو » قال السنجاب « ما هذا أيها الحيوانات الحيوانات ؟ هل تشكون من الخوف ثم تعيشون مع الأسد ؟ ابحثوا لأنفسكم عن طريق الخلاص » .

« بحثنا » قال الجمل هامسا « ذهبنا شرقا وغربا . ليس ثمّة خلاص » .

« نعم » قـال الجـربـوع هـامسـا « حتى تحت الأرض » .

« فعلا » قال الثور هامسا « كما تبحث عن ابرة في مخزن التبن » .

« هـالو » قـال السنجاب « الآن عـرفت كيف تتكلّم الحيـوانات . مـاذا دهـاكم جميعـا ؟ واحـد يبحث عن طـريق وواحد يبحث عن ابـرة . هـذا خائف من هذا وكلكم لستم خائفين من الاسـد . تهمســون في مـأتم الميّت وتصــرخـون في عــرين المميت » .

لم يردوا عليه . تركوه يتكلّم وحده في الظلام لكن السنجاب لم ير انه يتكلّم وحده .

« تعالوا » قال السنجاب « ارفعوا اصواتكم . دعونا نقول كلمة حق في أنفسنا » .

لم يردّوا عليه . تركوه يتكلّم وحده .

« تحرّكوا » قال السنجاب « تعالوا نفكّ وثاق

الفيـل ونتركـه يفكّ وثـاقنا . تعـالوا نكسـر طـوق الخـوف ونتركـه يكسـر طـوقنـا . لا تقفـوا هكـذا مقـرورين في الليـل لكي لا يقف الليـل مقـرورا فوقكم . اني احذّركم أيها الحيوانات الحيوانـات . فالشمس لن تطلع على أرض خائفة الى هذا الحد . واحد منكم لا بد أن يغضب لكي تطلع الشمس . واحد منكم على الأقلّ » .

لم يردّوا عليه . تركوه يتكلّم وحده في الـظلام ، وفي هـذه المرّة عـرف السنجاب انه يتكلّم وحده .

« حسنـا » قـال السنجـاب بمنتهى الغضب « تلزمون الصمت مثل حيوانات من الحجر . هذا تمثـال بغل وهـذا تمثال جـرادة . لا أحد يحس ولا أحـد يتحـرّك . وداعـا لهـذا المتحف . أنـا ذاهب وحدي لكي أغضب وحدي وأرجو أن تطلع عليكم الشمس » .

وبالفعل ذهب السنجاب غاضبا وحده

وبالفعل طلعت الشمس . وانتشرت
على الروابي . وسرى الدفء في
أوصال الحيوانات وخرجت الجديان
للّعب على العشب ورقصت الفراشة
مع الدبور ونفخ الثور في نايه ورافقه
على الطبلة خنزير ، واشترت البقرة
نصف رطل من العنب وسرقها البائع
في فلسين . غير ذلك لم يحدث شيء
سوى انهم صلبوا الفيل .

الفصل السادس

نجده خارج المدينة . نجده مصلوبا
على خشبتين . على يساره مصلوب
قرد أبيض وعلى يمينه قرد أسود .
أحدهما سرق جبنة من بيت القاضي
والآخر سرق ملحا وزيتونتين .
كلاهما لص وكلاهما يحب أن يتكلّم
حتى وهو ميت .

« ماذا سرقت أنت ؟ » قال القرد الأبيض للفيل ، لكن الفيل لم يردّ عليه .

« مسكين » قال القرد الأسود « لعله أخرس أو لعلهم أخرسوه . ماذا تعتقد انه سرق ؟ »

« بالنظر الى حجمه » قال القـرد الأبيض « لا بدّ انه سرق هذه الدنيا كلها » .

« ممكن » قال القرد الأسود « ولعله لم يترك لهم سوى هذه البقعة الصغيرة لكي يصلبوه عليها » .

« ممكن » قـال القرد الأبيض « ولعله لم يتـرك لهم سوى هاتين الخشبتين . اني أتمنى لو كان بوسعه أن يتكلم » .

« ليس بوسعي » قال الفيل فجأة .

« يـاه » قال القـرد الأسود « انـه يتكلّم . ثمّة مفاجآت في كل مكان » .

« لا أتكلّم » قال الفيل « ولا أسمع ولا أرى . هذا ملككم قد دقّ يدي بالمسامير لأني لم أضعها على فمي » .

نتـرك الفيـل وشـأنـه . انـه غـاضب ويحس بـالخذلان . نـذهب بحثـا عن السنجاب ، نجده غاضبا ايضا ويحس

بالخذلان لكنه لحسن حظه يستطيع أن
يمشي .
نمشي وراءه
وهو يمشي
نمشي وراءه
وهو يمشي
حتى فجأة تقابله قوقعة

« من فضلك » قال السنجاب « من فضلك يا حضرة القوقعة . اسمحي لي بدقيقة من وقتك . هل هذه هي الصحراء ؟ » .

« لماذا تسأل ؟ » قالت القوقعة وهي تضحك سرّاً داخل صدفتها .

« مهاجر اليها » قال السنجاب « أريد أن أهجر الدنيا وأصبح ناسكا في الصحراء » .

« لماذا تهجر الدنيا ؟ » قالت القوقعة وهي تضحك سرّاً داخل صدفتها .

« ايه . . ايه » قال السنجاب باكياً « ماذا بقي

في الدنيا لسنجـاب وحيد مثـلي . صلبوا صـديقي الفيل وأكل الذئب بناتي وهـربت زوجتي مع قط . دعيني أهجـر الـدنيـا قبـل أن أمـوت فيهـا من الجوع » .

« وماذا تأكل في الصحراء ؟ » قـالت القوقعـة وهي تضحك سرّاً داخل صدفتها .

« ايه . . ايه» قال السنجاب باكياً « ماذا سيأكل ناسك مبتدىء مثلي . انهم في العادة لا يرسلون له اكثر من لوزة أو لوزتين ، لكني آمل ان أجد شيئاً ذا مكانة عندهم » .

« ان شاء الله » قالت القوقعة وهي تبتسم سراً داخـل صدفتهـا « دعني أساعـدك أيهـا السنجـاب المسكين . اصعد هذه التلة واهبط التلة الأخرى . هناك ستجد الصقر شيخ النسّاك يتعبد على القمّة . قل له انك من طرفي » .

نصعـد التلة . نهبط التلة . نـذهب

وراء السنجاب حتى اذا كان ذاهباً الى
حتفه .
فوق القمة قال الصقر مبتدئا صلاته
ذلك النهار :
(نأكل أي أحد ولا نريد أحدا
يأكلنا . نأكل أي أحد ولا نحب أحد
يأكلنا . نأكل أي أحد ولا ننتظر أحد
يأكلنا) . وبعد ذلك مسح وجهه
وطار في السماء على عادة المصلين .

« هذا هو » قال السنجاب الذي أدهشه مشهد
الصقر في وسط السماء . « هذا هو الشيخ المبارك
راكب فوق نفسه . قدّوس . قدّوس . انه لا
يستطيع أن يراني اذا لم ألوّح له بمنديل » .

رآه الصقر . اتجه نحوه وطفق يحوم
فوق رأسه غير مصدّق . كان قد تعوّد
أن ينال عظاية مقابل صلاته ، وأحيانا

عـظاية وسحـلاة لكن ليس سنجـابـا يلوّح بمنديل .

« قدّوسٍ . قدّوس » قال السنجاب وهو يرفع رأســه مبهورا بتحليق الصقــر في السماء : « هكـذا يعيش من يُـريد حقـا أن يعيش ، حمارتـه الـريـح وشوارعه السحاب . انزل أيها الشيخ الـطائر ودع خادمك السنجاب يفتح لك صدره » .

انقضّ الصقــر . لطم السنجـاب على وجهـه بجنـاحـه العـظيم . نقــره في رأسه . غرس مخالبه في ظهره وطار به في اتجاه القمّة . السنجاب رفع رأسه وشرع يضحك .

« يـا مولاي » قـال السنجاب « يـا مـولاي ، دعني أمـوت أولا بالضحـك فهـذا أمـر مضحـك فعلا » .

« هه ؟ » قال الصقر .

« أنت ؟ » قال السنجاب « أنت شخصيا شيخ

النسّاك والسماوي الأول تتضوّر جوعا هنا حتى تطمع في جثّة خادمك السنجاب ؟ » .

« جائع » قال الصقر .

« جائع ؟ » قال السنجاب مستنكرا « الشيخ المجنّح جائع ؟ حسنا اذن أين عشاؤك الفوقاني ؟ أين الأرانب وماء الورد والبط البري وصغار الحملان المشوية ؟ » .

« ماذا نفعل » قال الصقر ورأسه يبحث يائسا عن أي حل : « أولا تضع جثتي سالمة فوق الأرض ، وبعد ذلك تتركني أساعدك على أن تكون شيخا بالفعل . اني أدعوك الى شراء مسبحة » .

هزّ الصقر رأسه حائرا وهبط بالسنجاب فوق قمّة الجبل . كان قد تعلّم من اقامته الطويلة في السماء أن يتقبّل أية معجزة تأتي من الأرض .

« مسبحة ؟ » قال الصقر .

« نعم » قال السنجاب « لماذا تهزّ رأسك

المبارك هكذا ؟ هل المسبحة عمل دنيوي الى هـذا الحد ؟ » .

« لا أدري » قال الصقر .

« طبعا لا تدري » قـال السنجاب « مـا دمت تنصت الى ذلك الرأس فلن تدري أبدا . انه مجرّد صندوق تحمل فيه منقارك وصلواتـك ، لكن دعني أفتـح لك البـاب قبل ان تمـوت وأنت تتـفرّج من النـافذة . ثمّـة واحد اسمـه الفيل . طـولـه كـذا وعرضه كذا . مصلوب الآن في هذه اللحـظة على خشبتـين لأنه لا يـريـد أن يـأكـل الأرانب . خـذ مسبحتك معك ودعنا أولا نذهب اليه » .

انحنى الصقـر وحمل السنجـاب فـوق كتفـه وطـار من دون أخـذ ولا رد . كانت نيته صافية وكان يعتمد دائما على صفاء النية . أما السنجاب فقـد غلبه اليـأس من السـماء والأرض وافتقـد صديقه الفيل حتى غلبه البكاء .

« هذا مطار الغـابة » قـال الصقر فجـأة « هل تريدنا أن نهبط » .

« لا » قال السنجاب بـأعلى صـوته « لا أريـد أحدا أن يراك . اتجه الى الجبل وابحث لنفسك عن مغارة دافئة . انك ستنتظرني فيها أربعين يوما » .

« لماذا أربعون يوما ؟ » قال الصقر .

« ياه » قال السنجاب وهو يجـاهد يـائسا لكي يرفع صوته على صوت الريح : « هل تتوقع حقا أن أروي لـك تلك القصة الـطويلة الآن . فقط خـذ مسبحتـك وانتظرني . ان لـدّي سردابـا لا بـد أن أحفره » .

« ولماذا تحفر السرداب ؟ » سأله الصقر .

« لكي يهرب الفيل » قـال السنجاب بمـا بقي لديه من قوة .

« لم أسمع » قال الصقر .

« يـاه » قـال السنجـاب ممتعضـا ، ثم التـزم الصمت ، أو لعله قال شيئا وذهب مع الريح .

في تلك الليلة مــات اللص المصلوب
عـلى يسار الفيـل ولفظ اللص الآخـر
أنفـاسـه ، وأمـطرت السـماء طـويـلا
وغـطى القمر رأسـه بمنديـل ، وسهر
الـذئب في بيت الكلب ، وبـادلتـه
الكلبـة ضحكتـين ، وبـاع الكبش
صـوفه بـريـال لكي يشتـري لـولـده
قرنين . غير ذلك لم يحدث شيء على
وجه الأرض لكن السنجاب كان يحفر
تحتها .

الفصل السابع

ما يزال السنجاب يحفر . فأسه في يد وسلّته في يد ، وهو يحفر ويحفر . بعد أربعـين يومـا سوف يجـد نفسـه أمـام الفيل ، وسوف يقرض قيوده ويدعوه بالحاح الى الهـرب ، لكن المشكلة ان يهزّ الفيل رأسه كالعادة ويرفض هـذه الدعوة . اننا نتوقع ان يشدّ السنجاب شعره وينتفه كله من فرط الغيظ .

« أيهـا الدرويش الـدرويش » قال السنجـاب بعد أن وصل الى الفيل وشدّ شعـره ونتفه كله من فرط الغيظ « لا تدعني أفقد عقلي أكثر من ذلك .

انـزل . اهرب من هنـا قبـل أن يسمـع الحـراس شجارنا » .

« لا أستـطيع » قـال الفيل « مـاذا دهاك أيهـا السنجـاب ؟ هل يهـرب الـراعي ويتـرك حملانـه للذئاب ؟ » .

« أيهـا الـدرويش » قـال السنجـاب غـاضبـا « دعك من هذه الأشعار المميتة ، فليس ثمّـة رعيان هنا وليس ثمّة قطيع . هذه غابة . هذه مجرّد غابة . واحد عنده مخالب وواحد ليس عنده » .

« ماذا تعني » قال الفيل .

« بصراحة » قال السنجاب « أعني انك تلعب دورا لا أدري من أين حفـظته . لعلك تقـرأ كتبـا غريبة . لعلك تـأكل أعشـابا مخـدرة ، لكن الدور الذي تلعبه يحتـاج الى مسرح آخـر . انني شخصيا كدت أن أفقد رأسي » .

« سلامة رأسك » قال الفيل .

« ياه » قال السنجـاب متضايقـا « هكذا أنت

دائما مؤدّب وكبير القلب لكن هـذه الغابـة ميراث لكبير المخالب . لعلّك متأثر بفقراء الهنود . لعلّك لست فيلا على الاطـلاق ، ولكننا هنـا جميعا مجـرّد حيوانات تعيش جميعا في مجرّد غابة . بعضنا يقرض وبعضنا يقرضونه . واحد مغطى بالصوف وواحـد غـير مغطى ، هـذا عنـده السـوط ، وهـذا عنـده المسبحة » .

« المسبحة » قال الفيل مدهوشا .

« يـاه » قال السنجـاب وهـو ينتف شعـره من جديد « انزل . انزل . انزل » .

نـزل الفيـل . لم يكن من السهـل أن ينـزل لكنـه نــزل في نهايـة المـطاف وأمسك السنجاب من يده ووضعه في جيبــه لكي يحمله معـه ، وفي هـــذه المرّة ، كان السنجاب هو الذي رفض أن يهرب .

« اهـرب وحـدك » قـال السنجـاب « لـــدي

مشاغل لا بـد أن أقضيها هنـا . دعني أدلّك عـلى مدخل السرداب » .

« والحراس ؟ » سأله الفيل « والملك ، ومخبرو الملك ؟ والصحفيون والصراصير ؟ » .

« لا تخف » قـال السنجـاب « فهـذه ميـزتكم معشر الأفيال . مـا دمتم لا ترون أحـدا فلا أحـد يـراكم . انني أعتمد عـلى هـذه الحقيقـة شخصيـا وأزمع أن أقول لهم إنك ذهبت الى السماء » .

« السماء ؟ » سأله الفيـل .

« يـاه » قـال السنجـاب وهـو ينتف شعـره « اهرب . اهرب . اهرب ».

هرب الفيل . هل رآه أحد ؟ أم لم يره أحـد ؟ ليس ثمّـة من يـدري . حتى هـذه اللحظة ليس ثمّـة من يـدري . فلعل أحدا رآه أو لعل أحدا لم يـره ؟ ذلـك أمر غـامض وقد لا ينجـلي أبدا حتى يـراه أحد او أحـد لا يره . أمـا

السنجاب فقد وجده جميع الحراس جالسا يبكي فوق الخشبتين .

« ماذا تفعل هنا ؟ » سأله الحرّاس في الصباح .

« أبكي » قال السنجاب « بعد كل ما شهدته بعينيّ » .

« ماذا شاهدت ؟ » سأله الحراس « وأين الفيل ؟ » .

« نعم » قال السنجاب باكيا « أين الفيل ؟ لهذا السبب أنا أبكي . احملوني من فضلكم الى الملك » .

نذهب معه . نجلس بجانبه في عربة الديوان . نمشي وراءه في أروقة القصر الملكي . نقابل معه حجّاب الملك حاجباً بعد حاجب حتى نصل الى آخر حاجب فنجده طبعا يرقص حاجبيه .

« أيها السنجاب . أيها السنجاب » قال الحاجب « ما دمت ستقابل الملك فكلّمه في شأن ترقيتي » .

« ماذا ؟ » قال السنجاب وهو ما يزال يبكي .

« أيها السنجاب . أيها السنجاب » قال الحاجب « تكون وسيطي عند الملك وأنا أزوّجك ابنتي » .

« لا أحب الوساطة » قال السنجاب « وأكثر منها لا تحبني ابنتك . فدعني أدخل على الملك قبل أن تجف دموعي » .

ندخل معه . نركع معه . نبقى راكعين ولا نرفع رؤوسنا حتى يسمح لنا الملك . واذا نسي الملك أن يسمح لنا ؟

« ماذا تريد ؟ » قال الملك للسنجاب .

« أولا أرفع رأسي » قال السنجاب وأنفه مفطوس في التراب .

« رأســك ؟ » قـال الملك « نعـم . نعم . اذا كنت تملك رأسا ، فارفعه » .

استقام السنجاب . مسح وجهه ونظر حـوله متـظاهرا بـالـذهـول . أعـطاه الذئب منديله لكي يمسح به دموعه .

« بشـأن الفيل » قـال السنجـاب وهـو يمسـح دمـوعه « جئت اليكم بشـأن الفيل . لقـد اختفى كله » .

« نعـرف » قال الكلب « هـل هـذا مـا جئت تقوله . لقد غافل الحراس وهرب » .

« لا . لا » قـال السنجاب « أنت مخـطىء يـا سيادة الكلب . لم يهرب الفيـل بل اختفى . هـذه الآن قصّة أخرى » .

« نعم » قال الذئب فجـأة وهو يـرفع احـدى أذنيه « هذه الآن قصّة أخرى » .

« اختفى » قـال السنجـاب « شهـــدت ذلـك بنفسي . كنت جائعا وكنت أقضم قطعة من خشبته

موقنا ان عصر المعجزات قد ولّى . فجأة أرفع رأسي . فجأة أرى نجما لامعا يشقّ السماء . بعد قليل يصبح النجم عربة . بعد قليل تقترب العربة وينزل منها جدّك الأسد وجدك أنت يا حضرة الذئب » .

« جدّي ؟ » سأله الأسد .
« جدّي ؟ » سأله الذئب .

« نعم » قال السنجاب « وحتى جدّك أنت يا حضرة الكلب ، كلهم نزلوا من العربة وجاؤا الى الفيل . اثنان منهم أخذا يلعقان حذاءه ، أما جدّ الملك فقد أخذ يدقّ على طبلته ويدور حوله سبع مرّات ويرقص ويقول : (طائر في اليد خير من عشرة على الشجرة . أيها المبارك الذي علّقه الملك بين السماء والأرض ! لا تهبط بل اصعد . هذا أنا أخلقك على هيئتي واعطيك جناحين ومفتاح مملكة الأسرار . قدّوس . قدّوس . أوصيك بقتل من لا يتبعك . أوصيك بقتل من يتبع غيرك . أدعوك

للكلام في وقت الكلام . أدعوك للصمت في وقت الصمت . أرفعك الى السماء فتهبط السماء اليك . أرسلك صقرا مكانك في القمّة وطريقك في الأعالي ولا تدنّس قدميك بتراب الأرض الا لتأكل » .

« وما هو الصقر ؟ » قال الملك مقاطعا .

« نعم » قال الكلب « ما هو الصقر ؟ » .

« اسألوا حضرة الذئب » قال السنجاب وهـو يأكل لوزة « لقد أخبرني جدّه بأنه يعرفه » .

« حقاً ؟» قال الـذئب حانقـاً « وتحدّثت مـع جـدي أيضـاً أيهـا السنجـاب ؟ نعم كنت أعـرف الصقـر وكنت أعرف أيضـاً انـه سيـأتي في اعقـابي عاجلًا أو آجلًا ، لكني كنت أطمع عـلى الأقلّ ان ينتظر بعض الوقت او على الأقلّ أن يـأتي من دون جد الملك او على الأقلّ ان يترك جدي وشأنه » .

« آسف » قــال السنجـاب رغم انــه لم يحس بشيء من الأسف « ليس بوسعي أن أغـيّر من هذه القصّـة . ان الملك لا يقبلهـا الا هكــذا . دعني

أكملها لكم قبل أن تجف دموعي » .

« هـه » قال الاسـد « وماذا حـدث أكـثر من ذلك ؟ » .

« نعم » قــال السنجـاب « نعم يــا صـاحب الجلالة . لقد اختفى الفيل وبـدأت الخشبة تتكلّم مع الخشبة . أنا أنوح باكيـاً من فـرط الخوف وتلك الخشبة تنطق فجأة وتقول لـلأخرى « هـذه القصة المألوفة نفسها . لقـد عشناهـا ألف مرة » والخشبـة الأخرى تضحك وتردّ عليها قائلة « ادفعي الرهـان ودعيني من كلامك . قلت لك إنها نفس القصة » والخشبة الاولى تضحك وترد عليها قائلة « لن أدفع لـك الآن . انتظري ريثـما يظهـر فوق الجبـل يـوم الاربعـين » والخشبة الأخـرى تضحك وتـردّ عليها قائلة . . . » .

الآن ننسحب . فهذا الذئب يريد أن يحكّ رأسه ولا بد أن ننسحب اكراما لرأس الذئب .

الفصل الثامن

في اليوم الأربعين خـرج الملك حافـياً
الى الجبـل لكي يقـابـل الصقـر طبقـا
لوصيّة السنجاب وخرجت معـه جميع
حيواناته حافية . كلهم ذهبوا حاملين
نذورهم وهم يبكون ويحرقون البخور
وينحرون الذبائح طلبـا لمغفرة الفيـل
الذي لم يكن مجرّد فيـل وطلبا لـرضاء
الصقر الذي ليس مجـرّد صقر ، وكـل
حيوان منهم آسف ، وكل حيوان منهم
يذبح له الآخر من دون أسف :

الثور ذبح له الكبش ، والكبش ذبح
لـه الأرنـب ، والأرنـب ذبـح لـه

العصفـور ، والعصفـور أحضــر لـه شمعة ، والشمعة أخذها الملك وذبح على ضوئها الثور .

أمـا السنجاب نفســه فقد تسلل سـرّاً وراء الجبـل وهـو يحمـل صـرّة فـوق رأسه وذهب الى الصقر في مغـارته . أعطاه جبّة من الريش واعطاه عمـامة وصندلا وقلادة . علّمه لغة الحيوانات وعلّمه العد الى العشرة . مدّ لـه يده وهو ينوي ان ينفض منـه يده ، لكن الصقر لم يتركه ينفض .

« آسف » قال الصقر وهـو يقفل بـاب المغارة « انني آسف فعلا ايها السنجاب لكنني لا استطيـع ان اتركك تمضي » .

« نعم ؟ » ســألـه السنجــاب نصف خـائف نصف مدهوش « لماذا لا تستطيع ؟ انك لم تعد في حاجة لسنجاب مثلي » .

« لهذا السبب » قال الصقر وهو يشحذ مخالبه « انني آسف فعلا أيها السنجاب لكنني لم أعد في حاجة اليك . لذا يلزم أن آكلك » .

« نعم ؟ » سأله السنجاب نصف نائم نصف يقظ « لماذا يلزم أن تأكلني ؟ ألا تكفيك جميع هذه الذبائح ؟ » .

« تكفي » قال الصقر وهو ينقض على السنجاب « انني آسف فعلا لكن كما ترى الآن هذه الذبائح تكفي . لذا يلزم ان اقطع لسانك » .

« والذئب ؟ » قال السنجاب نصف حي نصف ميت « ماذا ستفعل بالذئب . انه يعرفك أكثر مني » .

« لا تشغل بالك بالذئب » قال الصقر وهو يفتح رأس السنجاب ويجده مليئا بالقش « فهذا دماغه ليس مثلك من القش . انه لا يتكلّم ، واذا تكلّم مرّة لا يصدّقه أحد . هذا مضمون عشرة بالعشرة » .

نـذهب الى الـذئب . نفتّش عنــه في
زحـام الموكب . نجـده يمشي حـافيـا
وراء ظل الملك . عيناه عـلى الظاهـر
والخفي ، ونصف رأسه يتفاوض مـع
نصفه الآخر . على يمينه كـان الكلب
يتلقى تقريراً موجزاً عن مـوضوع لا
يحتاج الى تفصيل .

« هــذه قـصّــة الـصـقــر » قـــال رئـيس
الإستخبارات مختتماً تقريره « لا عـربة من السـماء ،
ولا شيء يدعو الى القلق . انه مجرّد درويش ، لكن
ذلك فيما يبدو رأس المشكلة » .

« نعم » قـال الكلب « فما دام الصقـر لم ينزل
من السماء ، فلا بدّ ان الفيل لم يصعد اليها . ماذا
تقترح ان نقول للملك » .

« اقترح الصمت » قال رئيس الإستخبارات
« هذا إذا كانت حكمة الكلب أكبر من وفائه ، فلا
الفيل يزعج سيّدك من فوق، ولا الصقر يزاحمه من

تحت . ثم ان كلباً واحداً لا يستطيع ان يسقط جد الملك من عربة في السماء » .

« لا أؤمن بـالصمت » قال الكلب « خـاصـة عندما يلفّني الظلام. دع الإستخبارات تقبض على الفيل ».

« قبضنـا عليـه » قـال رئيس الإستخبـارات « حبسناه في البئر ، وضربناه بـالفلقة . فعلنـا معه كل ما سمح به القانون » .

« ولم يتكلّم ؟ » سـأله الكلب متـوقعاً بعض المتاعب .

« بلى » قال رئيس الإستخبارات « لقد تكلّم حتى اضطررنا إلى إسكاته . تعرف فحوى ما يقوله أمثال هذا الدرويش ».

« ماذا فعلتم به » سأله الكلب ، وظـلّ يلحّ في السؤال حتى اضـطر رئيس الإستخبـارات أن يخـرج له لسـانه في إشـارة متفق عليهـا بـين أهـل الإستخبارات .

ينشغل بالنا على الفيل . ننظر حـولنا

باحثين في لهفة . نفتّش عنه بين الكتل المتراصّة ، حتى نجده يـرصّ نفسه بين الكتل :

« دعوني أصل الى الملك » قال الفيل وهو يشقّ طريقه في الزحام ، وثوبه الممزّق تعصف به الرياح « دعـوني أجتهد في اقنـاعه ، قبـل ان يقفـل بـاب الاجتهاد ، فلعله ينصت الى ما لا يريد أن يسمع ، ويترك عشاءكم ينضج ملياً بين الماء والنار . . » .

يدهشنا ان احدا لا يفسح الطريق أمام الفيل . يدهشنا ان احدا لا يسمعه . نقتـرب ونـدقّق النـظر ، فنـرى ان الإستخبارات قـد قـطعت لسـانـه ، وافرغت جلده من محتواه ، وان أحدا لم يعد يسمعه لأن أحدا لم يعد يراه . نـودّع شبح الفيـل ، آملين ان يكرّم ملك الاشباح وفادتـه ، فيسقيه زبيبـاً ويكسـوه قميصـاً من الحـريـر . أمـا الصقر ؟ .

الفصل التاسع

في الـوادي ، بـين الممـرات العميقـة
وراء الجبل ، انزلق الصقر فجأة على
حـافة الـريح المسـائي ، وقصد عـين
الـشـمس الـغـاربـة . كـان يحس
بـالعتمة . كـان يبحث عن الضوء .
بعد وقت طويل ، رضيت الشمس ان
تتبادل معه كلمة .

« دجّـال » قالت الشمس « لا خـير فيك ، ولا
من دونـك ضـرر . تـأكـل المـوتى ، ولا يـأكلك
الأحيـاء . مـا الـذي حملك عـلى هجـر بيتـك
الواسع » .
« حملني السنجـاب » قـال الصقـر «وضيّق

الصدر في بيت واسع . بماذا تنصحين ؟ » .

« أنصح بالعودة » قالت الشمس وهي تغطي رأسها وتذهب للنوم « ذلك أن ترجع ، الى من اليه لا تريد ان ترجع » .

توقّف الصقر عن الصعود . استدار في اتجاه الجبل ، وعاد يحلّق على ارتفاع منخفض في جوف الوادي . كان يحس بالعجز . كان يبحث عن معجزة .

« انزل » قال الذئب الذي تسلّل الى الجبل خلسة بعد ان تعب نصف رأسه من كلام نصفه الآخر « انزل ، ودعنا نتحدّث أرضاً لأرض » .

انتفض الصقر . أحس بالامتنان لرؤية وجه يعرفه في ظروف لا يعرفها ، لكنه لم ير سبباً للنزول .

« تكلّم من موقعك » قال الصقر « حسن ان

يتكلّم المرء من موقعه » .

« لن تستطيع أن تسمعني ؟ » قال الذئب « وأنت معلّق هكذا بين الريح والريح » .

« ترفع صوتك » قال الصقر « حسن ان يرفع المرء صوته ، عندما يحس بالانخفاض » .

« مستحيل » قال الذئب « لدي أسرار لا أريد أن يسمعها أحد ، ثم انني قد أحضرت لك العشاء » .

نزل الصقر . لم يكن من خطته ان ينكر صديقه وعشاءه معاً .

« تكلّم » قال الصقر ، بعد أن أعد له الذئب أرنباً مشوياً ، وأعطاه تبغاً ومسبحة أخرى .

« نحتفظ بالحكومة » قال الذئب « هذا اذا كنت لا تريدنا ان نعود الى نقطة الصفر . فلا أنا استأسد على الأسد ، ولا انت تحاسب النمر على سوء التخطيط » .

« الحكومة لا تشغل بالي » قال الصقر « رغم

انني لا أحبّذ رئاسة الكلب . فهو أحمق وضعيف البصر ، ثم انه يدسّ أنفه في المدسوس » .

« نحتفظ بالكلب » قال الذئب « هذا ، اذا كنت لا تريدنا أن نحلّ محله » .

« الكلب لا يشغل بالي » قال الصقر « رغم انني لا أحبّذ تضخّم جهازه بموظفين من طراز الثعلب والقنفذ والجرذ والخفّاش . فهؤلاء جميعا لا يفيدون الحكومة في شيء » .

« يفيدون » قال الذئب « من دون الثعلب لا تعرف الحكومة من سرق الدجاج . من دون الجرذ لا تعرف الحكومة لماذا سكت الديك . هذا له دور ، وهذا له وظيفة . انني لا أرى أحداً يزيد حقاً عن حاجة الملك سوى ذئب ناسك مثلك ، وغير ناسك مثلي » .

« هذا ما يشغل بالي » قال الصقر « خاصة بعدما رأيته في الدير . أنظر كيف تتحقّق الأحلام » .

« اني أنــظر » قـال الــذئب ، وهــو يغمض عينيه .

استـدار الصقر ، وحـدّق طـويـلا في العتمة . لقد أدهشـة فجأة ان الـدنيا تسير أحيانا من حسن الى احسن .

« رأيت أننـا في صحبـة الملك » قــال الصقـر « أنت ترفل في الحرير ، وأنا أنعم بالحرائر . فجأة دخل السنجاب . هل تذكر ذلك الوغد ؟ » .

لم يقل الذئب شيئاً .

« لا بد انك تعرفه » قال الصقر « فهو حيوان حفّار ، اشتهر بحب الحفر »

لم يقل الذئب شيئاً .

« الحاصل » قـال الصقر « لا أضيّـع وقتك في التفاصيل . لقد عاد السنجـاب بقصّة أخـرى عن جد الملك . وفي هذه المـرة كان دورنـا ، أنا وأنت بالذات ، أن نقضي حياتنا نتعبّد في الدير » .

انتفض الـذئب . فتـح عينيــه ونـظر

طويلاً في عين الصقر . كان يريد أن يسأله عن شيء ، لكنه لم يسأله .

« نعم » قال الصقر « فكّرت في قتل السنجاب ، ثم رأيت أن آكله ، لكن ذلك لا يحل سوى مشكلة سنجاب واحد . ان علينا ان نسدّ الطريق من أوله ، ونغلق الباب نفسه بباب آخر . أنت تحرس في الليل ، وأنا أحرس في النهار . عينك على السناجب ، وانا عيني عليك . مرة أرسل لك خروفا ، ومرة أحذّرك من الكلب . تجدني حيث تريد ، وأجدك حيث أتمنى . هذا طبعا اذا كنت لا تحبّذ أن نعيش بقية حياتنا في الدير » .

استدار الذئب ، وشرع يجمع حاجياته . وضع سلته فوق كتفه ، وقصد مغاور الجبل صامتا . كان نصفا رأسه متفقان على اغلاق باب النقاش عند باب الدير .

خاتمة

انتهى اليوم الاربعون . ظهر الصقر على القمّة . هتفت الحيوانات بالدعاء . زأر الملك ضارعاً . اعترت الدنيا رجفة . بكى الدب من الخوف ، حتى ضحكت عيناه . غير ذلك لم يحدث شيء سوى ان الملك لاحظ فجأة غياب الذئب .

« أين المستشار ؟ » قال الأسد لمن حوله « هل يشهد مولد الحكومة ، ولا يشهد مولد من يحكمها ؟ » .

ساد الصمت . لم يكن ثمّة أحد على وجه الأرض يعرف أين ذهب

الذئب . لكن الصقر هبط بالخبر من فوق .

« لا تسأل عن الذئب » قال الصقر ، وهو يحطّ على الأرض أمام الملك « ولا تذكر اسمه حتى أرقيك من شر من لا يسمّى . فهذا الذي تدعوه ذئباً ، يدعوه شيوخنا كلب ابليس » .

« يا لطيف » قال الأسد .

« خنّاس . عسّاس » قال الصقر « يوشوش بين الرأس والرأس . فاذا هذه الغابة تنقلب الى زريبة مسحورة . واذا الزريبة لا تضمّ سوى ذئاب مسحورين . واحد في زي خروف يعلّم أمه النطاح . واحد في زي كلب يلعب بذيله في حضرة الأسد . واحد في زي عنزة تغزل الصوف برجل الحمار . ضع هذه التميمة حول عنقك » .

« يا لطيف » قال الأسد ، وهو يستقبل السلسلة .

« فأريدك ان تعرف » قال الصقر ، « وأريدك

أن تحفظ عن ظهـر قلب ، ان الفيل يتكلّم ، لكن الذئب يفعل . وانه من الخير لنا ان يسمع الخروف من ان يرى ، فلا الحكمة تفسد طعم رأسه ، ولا كثرة الكلام مثل كثرة الملح » .

ثم قـال الصقـر « أريـــدك ان تحفظ ، ويحفظ عيالك عن ظهـر قلب ان الفيل صـوت ضائـع في البرّية ، لكن الذئب صوت يتردّد في كل صـدر . ذلك أن تولد ذئبا ، ما دام الأمر في يد الأسد » .

ثم قال الصقر « لا أوصيك بعشر وصايا . ولا أضيّع وقت ملك مثلك في أكل الكلام ، يكفي أن تعـرف يا صـاحب الغـابـة أن الفيـل حق ، لكن الـذئب واقـع ، وان الحق واحـد ، لكن الـواقـع كلهم ، وان الـــواحـــد مستحيـــل ، لـكن كـلهم ممكن . . » .

نتمهّـل هنـا لكي نتبـادل النـظرات ،
وكل واحد منا معه عيناه .

فذات مرّة جـاع الذئب . لا بـد انه جـاع ،

وخــرج متسلّلا في جـوف الليــل بحثـا عن شيء يأكله ، فلم يجد في جوف الليل ما يستحقّ الأكل ، ولم يقابل احدا سوى صديقه الصقر .

« تشجّع » قال الصقر « رأيتك في منامي تلبس جبّة وحولك صغار الذئاب » .

« دعني من أحلامك » قال الذئب « هذا آخر ما ينقصني . تلبسني جبّة في الليل ، وتعرّيني عـلى الملأ في النهار » .

« رأيتك مستوراً » قال الصقر « ورأيتـك تشقّ المدينة راكباً ، وصوتك يعلو على صوت النفير »

« وما هي المدينة » سأله الذئب .

« أخاف أن أدلّك » قـال الصقر « أخـاف أن تصدق الرؤ يا ، وأفتح لك بابـا آخر ، لن تعـرف كيف تغلقه » .

« ياه » قال الـذئب وهو يبتعـد غاضبـاً « هذا أنت الليلة في أحسن حـالاتك ، تبيـع وتشتري في سوق مقفولة . لا تغرنـي بمزيد من احلامك ، فأنا

الذي مضيت وراءها ، وعدت الى حيث بدأت مع خفوت الصوت والصيت » .

نقف هنا ، لكي نقطع الحديث ، وكل واحد منا تحمله رجلاه ، فهذا الصقر ينوي ان يقول شيئاً بلسانه المسحور ، لكي يغيّر الذئب رأيه ، ونحن لن نعرف متى سنقف اذا تغيّر رأي الذئب .

ودعونا الآن نفترق على خير ، قبل ان نجتمع على غيره ، وليكن في ما جرى لأهل الغابة عبرة لنا ، فلا أحد منا يقول ما يجعله يفقد رأسه ، ولا أحد منا يسمع ما يجعل رأسه يفقده .





الثمَن

500 درهم داخل الجماهيرية